العلم نور العقل

المعجم الوسيط عرف العلم بأنه "إدراك الشيء بحقيقته" وكذلك بأنه المعرفة ، كما عُرّف بأنه "نور يقذفه الله فى قلب من يحب". ومن الصعب صياغة تعريف شامل للعلم ؛ نظرا لشدة سعته وتنوعه. والعلم هو الغذاء النورانى للعقل ، وأساس الفهم وإدراك الحقائق. وبدون علم فلا عقل ولا فهم ، وحسب نوعية العلم تكون نوعية العقل. والانتفاع بالعلم الصحيح – فى تبصير العقول – هو أقوى وسيلة لمواجهة الجمود ومعالجة أقفال وفوضى العقول. العلم من أبرز أسباب سعادة المجتمع البشرى حين توجد السعادة الحقيقية ، وما سبق من سبق فيما سبق إلا بالعلم. والعلم لا حدود له ، وهو أخطر كثيرا مما ندرك ، وأوسع من طاقة التصور. وما نعلمه ليس من المؤكد أنه حقيقة العلم ، ولكنه تصورنا له.

والغرض من هذا الفصل هو التوضيح والبيان والتحذير لمن يغرهم التطاول فى البنيان وتقلب الذين كفروا فى البلاد ، وتنبيه لمن ينخدعون فى بعض من يلقبون بالعلماء – عباد المبانى الذين يجهلون جليل المعانى – الذين يأخذ الناس عنهم ثقة فيما يشاع عن عبقريتهم! لذلك سنوضح معنى العلم وصفة العلماء

الذين نحترم عقولهم ونقدر فكرهم ويصح الأخذ عنهم والاقتداء بهم ؛ لحسن تنظيم وتبصير العقل العام.

وصف العلم

العلم هو إدراك وفهم المعانى والعلاقات والأسباب الحاكمة. والعلم لا يُحد ولا يتجزأ ، لكن بغرض التقريب لعقلنا البشرى المحدود ولكى نستوعب فى حدود ما نطيق ، وفى سياق التحليل – فقط – نصنف العلم إلى علمين:

(1) علم شهادة (مادى حِرفى تجريبى) يتعلق بما يمكن أن يُشاهد ويُدرك ويحس ويختبر ، كعلوم الفيزياء والكيمياء والميكانيكا والتشريح والجيولوجيا.... إلخ ، وهو العلم المشهود فى كتاب الله المنظور.

(2) علم غيب (نورانى) يتعلق بما يتعذر إدراكه أو تحسسه بالوسائل المادية وحدها ، أو فى المختبرات ، كأمور الروح وحياة البرزخ ، وطبيعة الجنة والنار ، وموازين الحساب يوم القيامة .... إلخ.

العلمان متكاملان لا ينفصلان ، فهما فى الحقيقة علم واحد (وحيد المصدر) ؛ ومحاولة الفصل – أو التقسيم – تخل بالطبيعة المتكاملة ، لكن التقسيم ضرورة للتحليل والتمييز والضرورات تبيح المحظورات ، بحذر وإلى حين. ولكل من العلمين طبيعته وأبعاده وأعماقه وألوانه التى تميزه ، إن صحت مثل هذه الكلمات فيما يتعلق بعلوم الغيب. ولا يحيط بالعلمين إلا خالقهما – جل شأنه.

وهـذا التصنيـف التحليلـى ليـس تقسـيما حـادا ، بـل يشـبه التميـيز اللونـى للمتداخلات المتكاملة.

ولا غنى للعقل عن حد أدنى من كلا العلمين ؛ ليتكون لديه بنية علمية متكاملة متوازنة رغم محدوديتها ، أى بناية لها جانب شرقى وآخر غربى ، ناحيـة شماليـة وأخرى جنوبية. بنايـة لهـا شـق مـادى وآخـر غـير مـادى ، ومـن يتعسـف ولا يعترف إلا بالجانب المادى فقط ، فليعلم أن بنايته تطل من الناحية الأخرى علـى المجهول وتتشابك وتتفاعل معـه شـاء أم أبـى. ومـن المسـلم بـه أن المجهـول (أو الغيبى) منعدم التصور - لدى الجاهل - ولكنه ليس معدوم الوجـود ولا منعـدم التأثير ، فكيف يأمنه الجهال!

بالنسبة لعلم الشهادة (الحِرفى) فهو الشق الأدنى ، وهو أضيـق أفقـا وفـى أغلبـه يركن إلى الأرض ويميل إلى الدنيا مـا لم يتكـامل مـع قرينـه ، وقـد نسـميه علـم محدودى (أو معدومى) البصيرة. علم الشهادة يدرك بالحواس ووصفـه وتحديـده وتنميته أيسر نسبيا ؛ لأنه يتعامل مع المبانى المشهودة ، لذلك فالجدال حوله أقـل - وليس بقليل - وهو مجال للتجريب والاختبار وغالبا هو فـى نمـو لأن طبيعتـه تراكمية ، ويحاول أن يصحح نفسه بنفسه ويدفع الثمن غاليـا ، وحـين يـتراكم ويُركب بشكل صحيح يشتاق لأصله ويشعر بنقصه فيرنو لأنوار عـالم الغيـب ؛ تعبيرا عن العجز والحاجة. فـالعلم ليـس مـادة ، بـل جوهـر معنـوى وإن التصـق بالمادة ، فيقال مجازا مادة الرياضيات أو الفيزياء - مثلا - ويقصد بذلك المحتـوى

العلمى الخاص بالفيزياء. فطبيعتنا المادية تجعلنا تلقائيا نستخدم المصطلحات المادية – التى على شاكلتنا – لنعبر بها عن أشياء غير مادية نعجز عن وصف حقيقتها ، ولا بأس فى ذلك بل هو ضرورة ، ولكن يجب الانتباه حتى لا نغرق فى الخلط.

أما علم الغيب فهو الأعلى والأحكم والأخطر أثرا ، علم أولى الأبصار ، يسمو نحو السماء والنور ، فسيح الأفق يرنو إلى السعادة الأبدية المطلقة ، وهو فوق مستوى الحواس ويلزم فيه الإخبار (النقل) الأمين ، وليس مجالا للتجريب أو الاختبار ، ومحاولة التجريب فيه تعد نوعا من الضلالة ومضيعة للوقت والمال والجهد. فلا بد من الإخبار أو مما يشبهه ، كالوحى أو الإلهام أو الفتح أو الفراسة. وعلم الغيب يختلف فى طبيعته عن علم الشهادة ، ولكنه فى نفس الوقت يتكامل معه بلا تنافر أو تناقض. والبشرية المثلى تتجلى فى حالة التوازن المتكامل بين علم الغيب وعلم الشهادة – وصل اللهم على رسلك وأنبيائك ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين – فقد كانوا القدوة المثلى فى ذلك التكامل.

وحين يجد الإنسان أن نفسه قلقة ولا تقر له عين فليتنبه لوجود خلل فى التوازن. (والتكامل) العلمى يحتاج إلى إصلاح ، وإلا فسيستمر الحال من سيء إلى أسوأ. والخلل يكون نقصا كميا ، أى فى كمية المعلومات أو نوعيا ، أى فى نوعية المعلومات. فبعض المعلومات تكون إما خاطئة وإما غير متوازنة. وبقدر ما يتلقى الإنسان من المعلومات الصحيحة المتوازنة بقدر ما يشعر بالراحة والسعادة

وقرة العين وانشراح الصدر ؛ نتيجة للتوافق العلمى فى العقل. ونقصان العلم عن مستويات معينة ، أو اختلال التوازن بين العلمين يجعل الإنسان فى حَيْرة من أمره ويرى الدنيا سوداء مظلمة بلا أمل ولا مخرج ، وتتوالى السلوكيات الشاذة واليائسة ، والتصرفات العصبية.

ولو افترضنا جدلا أن مجموع المعلومات المخزونة بالعقل صحيحة - وهذا مستحيل - فيتبقى أنها غير مرتبة بالشكل الصحيح ولا متوازنة فضلا عن أن الإنسان يجهل أضعاف أضعاف ..... ما يعلم ويكفى ذلك جهالة. ومن يركن إلى مجموعة معلوماته المادية فقط يكون كمن يسبح بقاربه الكسيح فى محيط الجهالات ، هيهات أن يصل إلى شىء أو تقر له عين أو يستريح له بال. هذا الصنف من الناس اشتق لهم من الجهل اسم ووصف فلقبوا بالجاهلين ، وما يتعلق بهم نال وصفا مماثلا ، كالعصر الجاهلى وحكم الجاهلية وحمية الجاهلية وأبى جهل.

وما التعليم إلا نقل المعلومة ممن يعلمها إلى من لا يعلمها ، وكذلك ينساب العلم من أعلى إلى أسفل دون أن ينقص بل يزيد ، وهذا دليل اتصاله ببحار شديدة الاتساع. وبما أن العلم معنى وليس مادة فلا نخشى عليه من النفاد ونأثم إذا تعمدنا حبسه ، فتلك حماقة ، فكيف نحبس مالا يمكن حبسه! فقط يمكن إجراء محاولات لكتمه لكنه لا بد من ظهوره ومن حيث لا نحتسب. ويجب أن نحذر من سوء تعاملنا معه ، بالتقصير فى حقه ، وكلما قلبت ما لديك من علم يرتوى

من سعة بحار ليس لها قرار. وحين نتتبع الامر من أسفل إلى أعلى فنجد السلسلة التعليمية، طفلا ووالدين ومتعلما ومعلما وعالما ، ثم..... لم تغلق السلسة ، إنها ناقصة ، فعند العالم ملايين الأسئلة بلا إجابات شافية ، إذن تبقى هداية العليم الخبير ، إنها ضرورية لا بديل لها ولا تستقيم الأمور بدونها. وبقدر ما تتسع الرؤية يزيد إحساسنا بعظمة الله الذى وسع علمه كل شىء – جل شأنه – وينفتح المغلق.

والعلم نور لطيف بلا حدود ، بل نوعيات متداخلة متكاملة ومستويات متباينة ، باتصال شديد النعومة – متدرج بلا درج ، يسمو ويرتفع بلا عمد. فقد يبدأ الحديث عن الأرض وبقدر ما يتعمق يصل للسماء ، أو نبدأ الحديث عن البياض فنسترسل إلى ما لا يحصى من الألوان ، وبدون الشرق فلا غرب. وكلما علم العاقل شيئا استشعر بعدا كان خافيا لبحار العلوم. وهذه السعة اللانهائية للعلم تذهل الكثيرين ، وجعلت البعض يتخبط وسط ما يحسبه متناقضات ، ودفعت فيلسوفا كسقراط لأن يصرخ : "أنا أعرف شيئا واحدا هو أنى لا أعرف شيئا " ، وفى هذا القول من التناقض والحيرة واليأس ما فيه. وفى المقابل نجد نسمات الهداية الحانية تتنزل من السماء تتلطف بالعقول وتحميها من الحيرة ، وتجلى حقيقة الأمر ، فلا تنكر ما فى العقول من علم ولكن تشير إلى محدوديته ﴿... **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلاً**﴾ الآية 85 – سورة الإسراء.

وأجزاء العلم تنزع إلى التكامل مع بعضها البعض. فالعلوم الصحيحة لا تتنافر بل تتجاذب وتتلاقى لتحقيق وحدتها الطبيعية ، ويبرز ذلك حين تصفو النفوس وتخلص النوايا وتكون العلوم نقية. العلم الذاتى للإنسان الواحد لا يكفيه بل لا بد وأن يحتاج إلى علم الغير ؛ ليزيد علمه ويُلقح. ولا يوجد مخلوق يستغنى عن علم غيره ؛ لأن الكل لديه نقص شديد ، واستقبال المعلومة جاهزة أوفر كثيرا من السعى للحصول الذاتى عليها. فالعلم يكمل بعضه بعضا ولا يبدأ من الصفر ، فما دام بلا نهاية فهو أيضا بلا بداية. ولا أعرف عاقلا إلا وجدت لديه معلومات تكمل علمى حتى ولو لم يكن متعلما ، وأيضا يجد كل إنسان أن علمه المتواضع يكمل بعض علم غيره ، فالعلم لا يمكن أن يكون حكرا على مخلوق. وهذا التنوع "المعلوماتى" فى العقول هو أحد أسباب ثقة كل مخلوق فى عقله. وهنا يظهر العلم سببا من أسباب التعاون بين البشر والتعارف بينهم ، وللإنسان أن يفهم أن الفرد الآخر يمكن أن يعلمه شيئا.

قيمة العلم

بداية نقول : إن العلم نقيض الجهل ، والجهل أخطر شىء يضر بسلامة المجتمع ، وما من خطأ تأملته إلا وجدت الجهل من خلفه. والعلم هو المفتاح "الحقيقى" للرقى والتغلب على المشاكل ، وتنمية الخير وتحجيم الشر. فالشر ينمو ويترعرع فى مناخ الجهل ، والخير ينبع من العلم ويرتوى به. ولذلك فإن تقدم العلم يكون لصالح الخير ، وانحسار العلم يكون لصالح الشرور والإجرام. وإن

اتفقنا على ذلك ، فيمكن القول بأن تفشى الجريمة يُعد مؤشرا على التخلف العلمى للمجتمع البشرى ، رغم التقنيات الآلية المُحكمة البناء. لذلك فالعلم أخطر من أن يترك للعلماء وحدهم ، إنه قضية مجتمع ، ولكل فرد أن ينال حظه منه ويساهم فيه بما يتيسر له ، فالعلم هو خبزنا وسلاحنا ونورنا ، بل وبه تدار كل أمور حياتنا بأيدينا أو بأيدى غيرنا حين نتقاعس! فالعلم لا يُطلب بالتمنى ولا يُحصّل فى المنام.

ولا نحقر من العلم الصحيح شيئا فما يعلمه البواب مفيد لجميع سكان عمارة العلماء ، وساعى البريد يعرف أشياء لا يعرفها المتخصص فى الفيزياء ، بل نضيف أن معلومات العجماوات تفيدنا إن عرفنا لغتها ، والأدلة على ذلك عديدة ، ولعل أبرزها قول الهدهد لنبى الله سليمان - عليه السلام : ﴿... **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ - الآية 22 - سورة النمل. وهذا المثال النورانى يدل على قيمة العلم فى إكساب المخلوق الضعيف ثقة واضحة حتى فى مواجهة الملوك.

ونظرا للأهمية الحقيقية للعلم - فى تنظيم أمور الحياة - فقد وردت مادة العلم ومشتقاته فى محكم التنزيل نحو 900 مرة ، نذكر بعضها فى مواضع مختلفة من هذا الكتاب. وفى الحديث الشريف وردت مادة العلم أكثر من 200 مرة ، ونذكر منها على سبيل المثال الحديث الصحيح عن حذيفة - رضى الله عنه:

" *فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة ، وخير دينكم الورع* " ، رواه البزار ، والطبرانى فى الأوسط ، والحاكم فى مستدركه.

بدون العلم النقى تتلاشى الحياة الطيبة الكريمة تاركة الساحة للفساد والمفسدين. ولا يجوز أن تدعى فئة معينة أن أفرادها هم سدنة الحكمة وحراس العلم والمعرفة ولبقية الفئات يكفى الفتات! فالحد الأدنى من العلم ضرورى لكل ذى عقل ، ذلك شرط لمقاومة الجهالات والخرافات والضلالات ، ولنجاة المجتمع من الضياع والهلاك فى الظلمات.

والعلم الكامل ينفرد به خالق كل شىء ، قيوم السماوات والأرض - الذى يسجد لعظمته كل معانى الكمال - جل شأنه ، وتباركت أسماؤه. وكل ما تيسر للبشر من علم مستمد من علمه بفضله وبإذنه ، وكل شىء فى علمه منذ الأزل. وقد يجوز أن نحاول تعريف العلم الكامل ، فى حدود تصورنا ، بأنه الإحاطة الصحيحة الكاملة والشاملة بكل شىء. وهنا قد نسأل: العلم الكامل مطلق الإحكام والدقة ، كيف السبيل إليه؟ الجواب : إننا نتاج ذلك العلم الكامل ولسنا بواضعيه ؛ خلقنا الله بعلمه فى كتاب عنده ، وما نتوصل إليه بالتجارب والوضعيات ما هو إلا قشور مهزوزة ، أو ومضات تزغلل أعيننا فلا نرى حقيقة المصدر ، بسبب ضعف الإيمان به وبالتالى اهتزاز الأساس المعرفى. ولذلك فإنها فرصة عظمى أن تصلنا معلومة (غير محرفة) من ذلك المصدر (النبع الصافى) ، من أصل الخلق وخير ما سطر القلم ، إنها جوهرة خالصة النقاء

مهداة إلينا من العلم الإلهى ، يجب أن نتشبث بها لننتفع بنورها ، الذى لا **يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ، ونقدمها لمن يريد ، فهى رحمة لكل العالمين من رب العالمين.

وفرصة أهل الإيمان أفضل من غيرهم فى تحصيل صحيح العلم ؛ بما رزقهم الله من هداية ونور. والعلم اليقينى لا يتضح إلا بعد التخلص من الجسد الذى يربطنا بأثقال المادة وما يصاحبها من غشاوات وضباب وهذا لا يدرك فى حياة الإنسان ، لكن بقدر تحجيمنا للماديات بقدر ما نقترب من صحيح العلم ، والمقصود بالتحجيم هنا هو عدم المبالغة بالتعظيم أو بالتحقير. ولو سأل سائل : كيف يكون ذلك؟ فالجواب: إن الإنسان العبقرى حين يريد تحقيق شىء ، يبدأ التفكير فى الكيفية ، ثم يخطط وينظم ويحسب ويحاول توفير الإمكانات والوسائل ، ثم يصدر التعليمات والأوامر لمجموعات التنفيذ والمتابعة ، إلى آخر العمليات التنظيمية المتعارف عليها ، وبعد ذلك يبرز المنتج أو النتيجة (الجواب المطلوب) للوجود بعد مدة زمنية طويلة من بدء الرغبة فى تحقيق الشىء أو الوصول إليه. أى أن الشىء ينتج ويأتى للوجود (يتحقق) بالعلم والتفكير قبل أن يكون بالمادة ، وتلك نقطة فى غاية الأهمية : فالعلم – قبل المادة والطاقة – هو أساس الوجود ، والعلم البشرى يقبل التطوير إلى ما لا نهاية. وبالعلم توجد الأشياء وتتطور وتدور إلى ما شاء الله فترى حقائق المعانى ، والفانى يتولد من الفانى!

وأجل العلم ما قربك من خالقك - سبحانه وتعالى - فالعلم خلق إيمانى ، وتمام العلم بالعدل وإلا فهو زور. وكما ذكر الإمام ابن حزم ، حد العقل استعمال الطاعات والفضائل. وهذا الحد ينطوى فيه اجتناب المعاصى والرذائل. وقد نص العليم الخبير فى غير موضع من كتابه العزيز على أن العاصى لا يسمع ولا يعقل ، باعترافه على نفسه: ﴿ **وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ الآية 10 - سورة الملك. والعالم العاقل لا يرى إلا جنة الرضوان غاية عظمى ولا يلتمس إلا ما يوصل إليها من وسائل ، وهو مستعد لدفع الثمن ولو كان هو الحياة.

فعالية العلم

العلم الحقيقى يعوض كل شىء ، ويجبر أى نقص ، لكن يندر أن يوجد شىء يعوض نقص العلم ، ومع تقدم ورسوخ الأساس المعرفى يصبح الصعب سهلا ، ويولد اليسر من العسر ، ويتجلى إعجاز البساطة ، ويمكن السيطرة على الزمن وتقليصه بتسريع الأحداث.

فعلى سبيل المثال هب أنه على عهد نوح - عليه الصلاة السلام - كان يراد نقل جبل كتلته 100 مليون طن لمسافة 100 كيلومتر. فتحقيق مثل هذا الشىء سوف يستغرق عشرات إن لم يكن مئات السنين منذ البدء بالتفكير فيه إلى أن يتم الانتهاء منه ، بإمكانات وعلوم ذلك الزمان. أما بعلوم وإمكانات

وأسباب وقتنا الحاضر فيمكن تحقيقه فى شهور ، ومستقبلا يمكن تحقيقه فى أسابيع أو أقل من ذلك ، وهذا مستوى أرقى فى العلم. وفى كل الأزمان يلزم توفير إمكانات وبذل جهود تتناسب عكسيا مع مستوى العلم المتاح ، أى أنه يمكن اختصار الوقت اللازم لتحقيق شيء ما برقى العلم ، كما هو ممثل فى شكل (1) ، بمعنى أنه كلما زاد العلم كلما قل الجهد والزمن اللازمين لتحقيق الشيء ، ولكن بعلم الله – فنظرا لعظمة وطلاقة العلم والقدرة – يكفى توجه المشيئة (**كن**) ليزول الجبل أو يوجد من العدم.

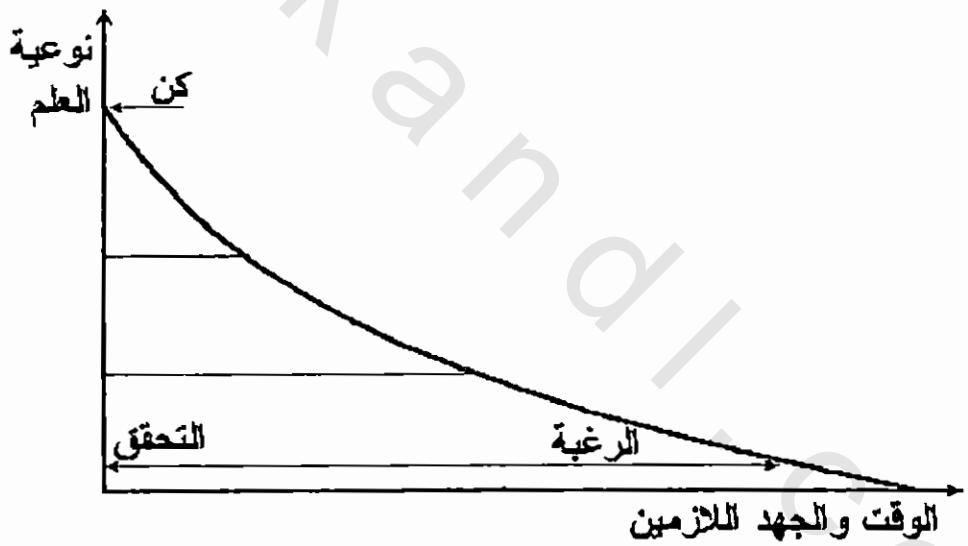

شكل (1). تصور علاقة العلم بإمكانية تحقيق شيء.

وكمثال آخر ، نتأمل موضوع إحضار عرش ملكة سبأ ، بناء على طلب نبى الله سليمان – عليه السلام – فنجد علما يمكن أن يُحضر العرش من اليمن فى

ساعات ، وعلما أرقى يحضره فى طرفة عين. ويمكن أيضا أن نذكر أمثلة عصرية حاضرة تدل على أثر ونوعية العلم فى تحقيق الإرادة ، وسيجد القارىء فى مجال الاتصالات أمثلة تسريع عديدة. ولنصعد فوق هذه الأمثلة البسيطة نسبيا ، ونتذكر أن المسيح – عليه السلام – هو كلمة الله ألقاها إلى أطهر نساء العالمين – عليها صلاة الله وسلامه. تلك نوعية العلم الكامل – و لله المثل الأعلى – لا يلزمه زمن ولا حساب ولا توفير إمكانات ، ولا بذل جهد ، فقط توجه المشيئة ممثلة فى كلمة **كن**.

أما العلم البشرى "الحِرفى" فهو مخاليط ومعارف مؤصلة بنائيا ، لا معنويا ، ويبدو هذا العلم للمتأمل وكانه جزئيات أو مجموعات من المعلومات المختزنة بالعقل أو العقول ويتم تفريغ معظمها فى وسائط حفظ متنوعة ، كالكتب وأشرطة التسجيل وغيرها ؛ لأنها أوسع وأوضح من العقل. وهذه المعلومات متنوعة ومصادرها عديدة ، تقوى بالتكامل وتضعف بالتجزئة ، وقد تكون صحيحة وقد تكون خاطئة ، نافعة أو ضارة ، هادية أو مضللة ، وهى فى الغالب أخلاط من كل ذلك ومن غير ذلك مما يفوق الحصر ، ولذلك فحياتنا تنوعات من الخير والشر حسب نوعية علومنا التى فى عقولنا. والعلم الحِرفى يعتمد على الاستدلال والاستنتاج ولذلك فهو عملية عقلية تركز على نتائج التجارب والخبرات البشرية ، وهو مطلوب للتعامل مع المفردات المادية ، ولا يكفى وحده كأساس للتفكير الكونى وحسن الفهم.

العلم مدخل إنتاجى

مدخلات الإنتاج التقليدية المتعارف عليها هى الماديات المعروفة مثل : الأرض والمعدات والعمالة والخامات والطاقة ورأس المال ....إلخ. وهنا نضيف إليها الشق المعنوى وهو : العلم والمعرفة كأبرز المدخلات الفعالة. وللتوضيح ، هب أن نشاطا يحقق ربحا نسبته 10٪ فى كل دورة إنتاجية ، فإن استطعنا بمستويات متنامية من العلم والمعرفة، أن نسرع (نختصر الزمن) ونكرر هذه الدورة عدد (N) من الدورات فى كل عام فتكون معدلات العائد السنوية المقابلة (R) كما فى جدول (1) ، على سبيل المثال.

جدول (1). معدلات العائد مقابل عدد الدورات فى السنة.

N	1	2	3	4	5	6
R (%)	10	21	33.1	46.41	61.05	77.16

وإذا سأل سائل : كيف يمكن الإسراع واختصار زمن الدورة؟ فالجواب: راجع شكل (1) والشرح التابع له ، فضلا عن أساسيات نظرية الإنتاج. وخلاصة نظرية الإنتاج أن النمو المعرفى يحرك خطوط الكميات الثابته (Isoquants) نحو نقطة الأصل ، أو بمعنى أبسط حاول أن تتأمل وتقارن كم جهاز "راديو" (بدائى بدون مسجل) كنا نستطيع أن ننتجها من طن الخامات بمعارف وتكنولوجيا عام 1930م ، وكم جهازا (متقدما) نستطيع إنتاجها

بنفس كمية الخامات بتكنولوجيا اليوم؟ الجواب : عشرات الأضعاف يمكن أن تنتج بنفس كمية الخامات لكن بمزيد من العلم والمعرفة. هذا بالنسبة لإنتاجية الخامات ، أما بالنسبة لإنتاجية المعدات فقد كان إنتاج فرن الأسمنت فى ذلك التاريخ (عام 1930م) حوالى 300 طن فى اليوم ، واليوم وصل إنتاج الفرن الواحد إلى 10000 طن فى اليوم ، أى ما يزيد على 33 ضعفا. وقارن إنتاجية فدان الأرض فى بداية القرن العشرين وإنتاجيته فى نهاية نفس القرن. وفوق كل هذه الأدلة العلمية-العملية على تزايد الإنتاجية بالعلم ، نوجز للمؤمنين ونقول: **وا لله يضاعف لمن يشاء ... ، و يرزق من يشاء بغير حساب.**

وبقدر ضعف الإنسان ومحدوديته وقصوره يكون علمه كذلك. والحد الأقصى لعلم الإنسان مقيد ببشريته وماديته وسعته المحدودة. وحين نشبه المعلومات بالمواد الطبيعية المنظورة كالتراب والفتات وكسور الأحجار والمعادن ، فنقول إنه كما يمكن تشكيل هذه المواد لنبنى بها كوخا أو قصرا أو مدرسة أو مخبأ أو فخا أو حظيرة- مثلا - أو ما لا يحصى من أنواع المبانى كذلك تكون منتجات العلم. والعبرة هنا تكون بحسن الإدراك ونبل الغاية ودرجة التسامى ، فالعلم يمكن أن توظف مفرداته (إنتاجيا) لتكون علوما إنتاجية متباينة الصحة والقيمة والإثمار.

والعلم هو أوسع أسباب - أو أبواب - الرزق إن لم يكن أوسعها على الإطلاق. وهذا ما نريد أن يعقله من ينشد التقدم والرقى الحقيقى. بالعلم يمكن الإنتاج بأقل طاقة وبأقل خامات وبأقل جهد وبأقل تكلفة وبأعلى جودة وفى أقل زمن ، لذلك نقول بأن العلم أوسع أبواب الرزق ، وكما هو معلوم فسعة العلم لانهائية.

تبين مما سبق أن العلم مدخل إنتاجى فعال وبه تتولد أسباب الرزق ، لكنه مدخل غير عادى بل فريد فى شدة سعته وما يتمتع به من إمكانية توسيع الضيق وتقريب البعيد!! لا نقول بالعلم الإلهى فهذا مفروغ من تصديقه ، لكن نقول إنه حتى بالعلم الحِرفى يمكن توسيع الضيق ، ولنتأمل المكتبات التى ضاقت بما فيها من الكتب رغم أن مساحاتها مئات الأفدنة أو أكثر ، ومليارات المليارات من الصفحات فكيف يجد الباحث ضالته؟! لكن الآن فى عصر الكمبيوتر وال CD ROM الوضع ينقلب ، فهذا الحجم المهول يختصر (يتقلص) بشدة ، والضيق والزحام يختفيان ، حتى الأوزان تنقلب ، فالموسوعات التى تزن أطنانا تختزل إلى مئات الجرامات ، والمسافات تختزل كذلك ، فسفر الشهور يختصر إلى ساعات. إن للعلم فتوحات يأذن بها العليم الخبير بقدر ، حين يشاء ، ولمن سعى. وحكم السعى فى طلب العلم يوضحه الحديث الشريف - الصحيح - المروى عن جماعة من مصابيح الهدى ، منهم أنس وعلى والحسين وابن عباس وابن عمر وابن مسعود وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهم : " *طلب العلم فريضة على كل مسلم* " . تلك الفريضة التى يتجاهلها الدراويش.

وحين يقصر السعى وتشتد الحاجة لفتح باب جديد ، أو لمزيد من العلم يتفضل العليم الخبير بتيسير أو تقريب أسباب كشفه ليتم فى التوقيت المقدر ﴿ ... **وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ** ﴾ الآية 21 - سورة الحجر ، ولكن الجاهل يسمى ذلك صدفة! وكم من الاكتشافات العلمية ظهرت بهذه الكيفية ، والقارئ المثقف لا يعدم الأمثلة الدالة على ذلك.

والإحاطة العلمية الكاملة بأى شىء مستحيلة على المخلوق ، لأن الإحاطة الكاملة تشمل معرفة سر الخلق ، ولكن هذا المستحيل ينفرد به الخلاق العليم - سبحانه وتعالى. والعلم الصحيح فيض من الله يتفضل به حين يشاء لمن يشاء ، وهذا الفيض الإلهى ليس مادة لأن الله عز وجل ليس مادة ؛ لأن المادة شىء مخلوق ولكن الله **ليس كمثله شىء** وليس مخلوقا ، وأى محاولة لتصوره تدل على منتهى الجهل به - سبحانه وتعالى **عما يصفون**.

التعلم

التعليم هو أبرز وسائل صناعة العقول. أما التعلُم فهو العملية التى نعى ونكتسب بها معرفة جديدة ، وأيضا يمكن تعريف التعلم بأنه تغير ملموس فى المقدرة على عرض سلوك معين ؛ وهذا التغير يحدث نتيجة اكتساب معلومة أو خبرة ناجحة أو غير ناجحة يعقلها العقل. واعتبر التعلم وسيلة للتكيف السلوكى

والتوافق الإجتماعى. ومعظم معارفنا تعلمنا من غيرنا ، ولذلك يتجاوز التعلم حدود الفرد ليشمل الجماعة ونقل الثقافة من جيل إلى جيل.

ومن الناحية الفنية ، لا يشترط أن يكون التغير الناتج عن التعلم مفيدا أو إيجابيا ، بل يمكن أن يكون غير ذلك ، ولكنه تعلم. وليس كل ما يتعلمه الإنسان يتحول إلى سلوك ، وتلك نقطة يجب الانتباه إليها ؛ لأن ذلك يعنى إمكانية تضاؤل فائدة الكثير من التعليم المكلِف. والنجاحات فى الاختبارات التى تجرى فى دور العلم لا تضمن التعلم. فحين لا يؤدى التعليم إلى تغير فى السلوك (أو الأداء) تتلاشى فائدة العملية التعليمية ، وقد تصبح عملية خاسرة.

ومن يتأمل يجد أن الغالبية العظمى من الناس - إن لم يكن كلهم - يعلمون بوضوح أن الكذب صفة قبيحة ، ولكن الكثيرين من الناس يكذبون. وكل اللصوص يعرفون أنهم يمارسون أعمالا مُجرمة ورغم ذلك يسرقون! وكثير من أصحاب الحرف لا يمارسون حرفهم رغم تعلمهم إياها. وفى المقابل ، كثيرا ما نسمع من يقول: إننى تعلمت من هذا الموقف أو من تلك الأزمة ، وهذا تعلم حقيقى بغض النظر عن نوعيته.

ويلاحظ أن المعلومة الواضحة المعنى يسهل تعلمها والاحتفاظ بها لمدة أطول من المعلومة عديمة المعنى أو الغامضة ، ويدل ذلك على الحساسية المعنوية للعقل. وتعلم الشىء أو تذكره يكون أيسر إن كان مرتبطا (أو متعلقا) بمعلومة أو خبرة

سبق للعقل أن استوعبها أو ألفها ، فالمعلومات ذات الصلة يشد بعضها بعضا فى الذاكرة ، بغض النظر عن أهميتها أو قيمتها.

وأسباب عدم ترجمة التعليم إلى سلوك يمكن أن نذكر منها ما يلى:

1- عدم وجود الحافز ، فبسهولة يمكن أن يتعلم الإنسان كيف يضبط آلة التنبيه ليستيقظ مبكرا ، لكن ما هو الحافز لكى يطبق الإنسان هذا التعلم ويستيقظ مبكرا؟ إذا لم يكن الحافز يستحق ، فقد يفضل الإنسان البقاء فى الفراش المريح الدافىء وإسكات آلة التنبيه. والحافز المقصود هنا قد يكون ماديا أو معنويا أو كليهما.

2- الخوف ، فمن يخالط اللص المحترف يمكن أن يتعلم منه بعض أساليب السرقة ، ولكنه قد لا يمارسها خوفا من أن يُضبط فيعاقب.

3- عدم توفر الإمكانات ، فقد يتعلم الإنسان مهنة اللحام - مثلا - وبعد ذلك قد لا يجد فرصة عمل ، أو قد لا يتوفر لديه التمويل اللازم لتجهيز مكان يمارس فيه مهنته.

4- عدم وصول التعلم للحد الكافى لإحداث تغير فى السلوك ، كمن يبدأ فى تعلم شىء يحتاج لمدة فصل دراسى ثم ينقطع أو ينسحب فى الأيام الأولى للتعليم ، لأى سبب.

الحشو التعليمى

لكى ينجح التعلم فإنه يشترط فيه القبول إن لم يتيسر الحب ، بمعنى أنه مطلوب

أن يكون التعلم عملية ممتعة ، ممتعة للمعلم وممتعة للمتعلم ، وقد تتفاوت درجة ونوعية المتعة ، فالمعلم الكاره لما يقول يتعذر عليه النجاح فيما يؤديه ، والمتعلم المجبر على ما يسمع ، لا يعقل ما يسمع ، ولا يمكن أن يحقق نجاحا فعليا. وكقاعدة عامة الأشياء القليلة المُشوّقه تكون سهلة الهضم حسنة التمثيل ، والعكس صحيح. وبما أن ذاكرة العقل محدودة السعة إذن يجب عدم حشوها بما لا يلزم ؛ فزيادة الحشو ستكون على حساب نشاط الفكر. لا نقول ذلك كراهة للعلم أو تقليلا من شأنه ، بل نقر بأن أى معلومة قد تفيد فى يوم من الأيام ، لكن نطالب بإتاحة الفرصة لتذوق ما يصل للعقل وهضمه وتمثيله بإبداع.

المعلومة التى يستوعبها الإنسان بحبه لها وتمتعه بفائدتها تنادى باشتياق على ما يكملها أو يتعلق بها من معلومات فتكون بنيانا علميا سليما مبدعا. أما المعلومات التى يضطر الإنسان لابتلاعها كارها ؛ لتخطى اختبار أو لمجرد الحصول على وظيفة أو ما شابه ذلك ، فسرعان ما يتقيأها غير نادم عليها ، بل وقد يسخر ممن يتحدث عن قيمتها ، فما جدوى التعليم فى مثل هذه الحالة! إننا لا نعرف إبداعا أو كشفا علميا ذا قيمة ، أو تطبيقا مفيدا جاء على يدى كاره له. فالحشو العلمى تركيز على الكم ، لكن التذوق العلمى تركيز على الكيف أو النوع.

العالم والمهنى

العلم محتوى ، والعالِم وعاؤه الحى ، وقد يكون الوعاء طيبا طاهرا أو يكون ملوثا أو خبيثا. ولكن يقصد بالعلماء هنا أولى الأبصار والألباب ، أصحاب الفكر السوى والخلق القويم ، المتوجهين بتعمق متكامل وإخلاص نحو الأهداف السامية والغايات النبيلة ، ويستبعد من فئة العلماء من يوظفون العلوم الطبيعية فى الإضرار والإفساد وفى خدمة الشر والأشرار ؛ فتلك صفات المجرمين. وقد سمعنا قول العليم الخبير : ﴿... **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ...﴾ - الآية 28 - سورة فاطر. وقد ورد فى الأثر أن "العلماء ورثة الأنبياء" ، فأى تحديد جلى لفئة العلماء أوضح من ذلك!

بعد هذا الإبلاغ الواضح والصريح ، لا يصح اعتبار الملحد المتخصص فى الفيزياء عالما ، مهما بلغت شهرته ، بل هو مهنى ماهر فى مهنته ، وليس إلا فيزيائيا قُحا ، وهو كالنجار الفنان الذى يعالج قطع الأخشاب ليشكل منها ما يثير إعجاب من لا يتقن حرفة النجارة ، ومحترفو الكيمياء والفيزياء يتقنون صنعتهم لدرجة تبهر البسطاء أو غير المتخصصين. هذا ولا نقلل من قيمة ما يسمى بالعلوم الطبيعية المهنية - الدنيوية - ومن الحماقة تجاهل أهميتها كأسباب لتيسير حياة البشر ، بل نؤكد ضرورة إقدام المؤمنين عليها لتهذيبها والنهوض بها وتوجيهها نحو الخير ؛ لأن مجاميع المعلومات المقطوعة الصلة با لله تمثل العلم الأعمى ، وحين يفتقد الإنسان البصيرة الإيمانية يهبط إلى مستوى الأنعام.

أما من يتدنى بأسلافه إلى مستوى القردة فقد أراح وقدم الدليل الشاهد على مستوى فكره وحال عقله. وصانع القنابل الجرثومية محترف يخدم الشيطان ، فكيف يعد وريثا لمحمد بن عبد الله أو المسيح أو موسى أو إبراهيم - عليهم صلاة الله وسلامه أجمعين. ومن يوصى بإلقاء القمح أو الزبد فى البحر حرصا على سعره فهو جاهل بمعانى نعم الله وغارق فى الظلمات ومن يعتبره عالما فهو أجهل منه. والذى يحفظ النصوص الدينية ويوظفها فى إخراج الفتاوى التى تخدم أغراض السلطان ، وأيضا القانونى الذى يشارك فى صياغة القوانين الظالمة ، واللص المتعمق فى مجال الإلكترونيات - مثلا - لتوظيفها فى التزوير والتلفيق والفبركة من أجل أكل حقوق الناس بالباطل ، كل هؤلاء وأمثالهم العلم الحقيقى منهم براء وهم فى الحقيقة "وباء" ، ومن أسباب البلاء على حد تعبير أحد الصالحين.

العلم الحقيقى يتبرأ من كل أمثال هؤلاء الضالين ، واسمع قول الله عن من يضل على علم ،﴿ **أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ الآية 23 - الجاثية. وحين نرى تفاحة جميلة فى صندوق القمامة فمن الحماقة أن يكون ذلك سببا للحديث عن خصوبة الصندوق وأصالة معدنه ، ونتعفف ولا نذكر أسماء اشتهرت فى مجال العلوم الطبيعية وكانت نتانة رائحتهم تضايق جلساءهم وتحرج تلامذتهم ، وأحيانا وصفت بأنها لا تطاق ،

هذا فضلا عن التنانة المعنوية. ولكن حين نرى نضارة التفاحة فوق شجرتها اليانعة بجمال أزهارها وطيب ريحها ، عندئذ يجدر التفكير فى جودة الشجرة وخصوبة التربة وجهد من غرس ورعى ، وفضْل من خلق وسوى ﴿ **ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ .....**﴾ الآية 29 - سورة الفتح.

ونتوقف هنا لنراجع الأمر ونسأل أنفسنا عدة أسئلة ، لماذا شاع بين الناس أن المتمرس فى مجال الكيمياء - مثلا - يدعى عالما ، ويوقر حتى ولو كان سكيرا ملحدا؟ لماذا يحسب الناس أن كل من اشتهر فى مجال الهندسة الوراثية عالم ولو كان عربيدا كافرا؟ أيهما أرقى فى الإنسانية وأنفع للناس وأكرم فى ميزان الله ، العامل البسيط الذى يميط الأذى عن الطريق أم العاكف على تطوير قنابل الغازات السامة!

إنه الانهزام النفسى ، والاستسلام للقهر والخضوع للطغيان ، جعل الناس يحسبون من برز فى صنعة أو مهنة ما عالما ، وإن صح ذلك مجازا فلا تتجاوز الصحة النسبية حدود المهنة ؛ حتى لا نبخس الناس أشياءهم كيفما كانت نوعيتها ولنحسم الجدال ، فنحن نقدر جوهر العلم النقى الطاهر بمختلف فروعه ، أما الوعاء الذى يحتوى العلم فنشترط فيه الخلق والطهارة والأمانة والإيمان.

وقد جاء فى الذكر الحكيم قوله عز وجل: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ - الآية 80 - سورة الأنبياء. فالتعليم متعارف عليه بين أهل الصنعة أو أصحاب المهنة - منذ القدم - دون أن يعتبروا علماء. ونزيد فى التوضيح فنذكر أنه توجد عمليات تعليمية - نظرية وعملية - بين الصبى ومعلمه وقد يتسحب ذلك مجازا فى مجال السرقة واللصوصية والغش وتجارة المخدرات والبلطجة والدعارة والنصب وما شابه ذلك ، ويدعى كبيرهم "معلما" - اسم مشتق من العلم ومنسوب إليه بالباطل ولكنه شائع!

وخلاصة القول أن العالم مُحتسِب أمّا المهنى فمتكَسِّب ، العالم طيب طاهر والمهنى القُح لا يشترط فيه ذلك. ويمكن للمهنى الماهر أن يعقد النية الخالصة ويحتسب فى سبيل الله مع اكتسابه ما يلزم لمعيشته ومعيشة من يعول ، وعندئذ يمكن اعتباره عالما بوظيفته ودوره فى هذه الدنيا ؛ لأن ذلك هو أساس العلم الصحيح ، ولأن قلبه قد توجه الوجهة الصحيحة نحو خالقه. وفصل الخطاب فى محكم التنزيل: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ الآية 11 - سورة المجادلة. فهل يُعقل أن يرفع الله الفاسق أو الكافر أو النجس أو المنافق ..... إلى آخر السلسلة النكدة! كل من الكافر والضال ناقص العقل مريض القلب. ما قيمة المعادلات والعلاقات المنطقية

الخادعة والخواطر الشيطانية التى يحاول أصحابها توظيفها لتبرير الكفر! وما عاقبة العبقرى القُح الذى تفوح من كلامه رائحة الضلال!

المتكسب يريد الدنيا بأى ثمن ، ويرجو الأجر من العباد ، وهم يعطونه بمقاييس ومبادئ تبادل المنافع المؤقتة. أما المحتسب ، فيريد الآخرة وسعيه فى الدنيا وسيلة لتحقيق تلك الغاية ، وبصماته فى العلوم الكونية نقية طاهرة ، ويوقن العالِم بأن "العلم (الخالص) نورٌ ، ونور الله لا يهدى لعاص". المهنى ممكن أن يكون موهوبا أو ذكيا أو يجمع بين الاثنين أحيانا ، ولا يشترط فيه الطهارة المعنوية ، أما العالم فذكى زكى.

صفة العلماء

"العلماء هم ورثة الأنبياء" ، وهم الذين يتدبرون الكتاب الكونى العجيب فيبصرونه ساجدا لخالقه ، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ، ومن ثم يعرفون الله معرفة نورانية تليق بجلاله وعظمته. يعرفونه بآثار صنعته وإبداعه وقدرته ونعمه وآثار رحمته. تتجلى تلك المعرفة فى الخشيه والتقوى وحسن الطاعة وإخلاص العبادة ، فعندئذ يلين القلب وتشف النفس فتنساب عليها السكينة ولطائف الأنس ونسائم القرب وتشرق الأنوار. بهذه الصفات النورانية يأتى الرسل والأنبياء على رأس علماء البشر. والعلماء هم الذين

يتحملون أمانة فرز العلم الصحيح وتقديمه للناس ، وكشف العلم المغشوش والضال وتحذير الناس منه.

العلماء هم قادة الفكر فى المجتمع الطبيعى ، ويتلاشون فى "المجتمع الاصطناعى" الذى يتحكم فيه الأفيال والديناصورات ووحوش الغابة ، عباد المادة ، وتجار الجهل. من صفات العالم أنه (ظاهر) التقوى والخشية والأمانة والطهارة ورجاحة العقل ومعرفة الله وطلب رضاه - سبحانه وتعالى - فتلك شروط سلامة عِلم العالم ، بدونها يتسلل الغش والخداع والشهوات والأهواء والتضليل والإفساد باسم العلم ومن خلف أستاره. العالم صاحب فكر ورؤية ، ومن العلماء من يركز على الجانب الفكرى فيلقب بالمفكر ، ومنهم من يركز على الجانب الطبيعى فيلقب بنوعية علمه فى الكيمياء أو الفيزياء أو الهندسة .... إلخ.

العالم يكون هادئ الطبع لا يطيق الصخب ولا الضجيج ؛ لأن ذلك لا يمكنه من التفكير واستخلاص المعانى. العالم يكون خفيض الصوت ؛ لأنه يدرك أن علو الصوت ليس حجة ولا دليل بلاغة ، بل يعلم: **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**. العالم رحب الصدر ؛ لأنه يسلم بحق الآخر فى التعبير عن وجهة نظره ، حتى ولو كانت مخالفة أو غير صائبة ، العالم وثيق الصلة بربه ، يعمل بما يعلم ، ولا يحجب علمه عن الناس ، يسمع أكثر مما يتكلم ، يقرأ أضعاف ما يكتب ، ويظل يتعلم لآخر حياته ، يفهم معنى أن الله قد خلق للإنسان لسانا واحدا للكلام وعدة حواس لالتقاط المعلومات.

العالم عف اللسان ، ويصبر على حقد الحاقدين وجهلهم ، لا يتدخل فيما لا يعنيه ، يبغض النفاق ويضيق بمجالس المنافقين ، لا يتباهى بعلمه على الآخرين ولا يقصد الشهرة ، لا ينتظر الأجر من البشر ، ويحاول الابتعاد عن ذوى السلطان عموما والظلمة خصوصا، لا يحب المظاهر بل يركز على الجواهر. العالم لا يكون مجرد صدى لعصره أو تابعا لمجتمعه بل يواجه الناس برؤيته حتى ولوكانت معارضة لتوجه الناس ؛ لأنه يرى ما لا يرون.

العالم حريص على عدم تضييع الوقت ؛ لأنه يعرف قيمته كنعمة قيمة يجب اغتنامها ؛ لأنها محدودة ، لذلك لا يطيق الانغماس فى اللهو ، بل يشفق على من يفعل ذلك ، يفضل تقديم الحجة والبرهان على الجدال ، وحين يفرض عليه الجدال يجادل بالتى هى أحسن ، شديد التواضع ؛ لأنه يعلم مم خلق؟ ويتصور حاله فى نهاية العمر ، ولا يرى لنفسه فضلا ؛ لأنه يعلم أن الفضل من عند الله.

العالم يعرض عن اللغو وفضول الكلام ، ضحكه لا يجاوز حدود الابتسام ، متواصل التفكير إلا أن يقاطعه قاطع. العالم تراه مطمئنا واثق الخطى ، يميل إلى الإخبات وإعذار الناس ، لا يتكالب على الدنيا ؛ لعلمه أنها سفلى وفانية ، ويتكاثر عليها الذباب والكلاب.

العالم ثاقب البصيرة ، يستشف ما وراء الأشكال والحواجز فيرى ما لا يراه الناس ، وحين يبدى رأيه يحاول أن يمهد له ويقربه للعقول حتى لا يبدو غريبا عليها. العالم يتحلى بالصبر والحلم والرفق ويخاطب الناس على قدر عقولهم ، لا تبهره الزخارف ولا يحب التكرار الممل ولا التقليد الأعمى ، بل يمقته. العالم يوقن بأنه لم يؤت **من العلم إلا قليلا** ، لذلك يحذر الخطأ ، وهو قليل الجزم فدائما يحذر التعميم ويحتاط بالاستثناء ، العالم تشغلة الكليات قبل أن ينشغل بالجزئيات ، يحمل هموم مجتمعه ويعرف واجبه نحوه ونحو الإنسانية جمعاء ؛ فعطاؤه يتعدى حدود نفسه وأهله إلى الدوائر المحيطة ، وما استحق الحياة من عاش لنفسه فقط.

العلم والتكنولوجيا

منذ نشأة الإنسان على الأرض وهو يحاول أن يتعامل مع مكوناتها بعقله وجوارحة تحت رعاية العليم الخبير - جل شأنه. وبالتعامل مع الأشياء بدأ الإنسان يستشعر طبيعتها ويستنتج ما يتيسر من خواصها ومبانيها ، ويتفنن فى حسن التعامل معها. وقد تعرضنا للعلم فى فقرات سابقة ، أما التكنولوجيا فيُعرّفها البعض بأنها تطبيق العلم ، ويرى البعض الآخر عدم دقة هذا التعريف ، مستشهدا بوجود تقنيات عديدة قديمة لم يكن أصحابها يعرفون أسسها العلمية بالمفهوم المتعارف عليه الآن. فصناعة الأدوات الحادة التى احتاجها الإنسان قديما وأدوات القتال كانت نتيجة خبرات غير مؤصلة علميا ، وكذلك صناعة الروافع

والأثاث المنزلى وبناء المساكن ، وحتى اكتشاف الأسمنت البورتلاندى فى القرن الماضى تم على يد بناء لا يعرف شيئا (علما) يذكرعن الكيمياء ولا الفيزياء ولا الميكانيكا.

وإلى اليوم فكثير من الحرف لم يتلق ممارسوها القدر الكافى من العلم التخصصى ورغم ذلك يقومون بأدوار إنتاجية تخدم المجتمع وتفيده ، وتلك نعمة من الله يمن بها على البسطاء لتيسير سعيهم فى الدنيا ، وهذا لا ينفى حاجتهم لتلقى المعارف التخصصية التى تخدم حرفهم على أسس علمية ؛ فذلك يمكنهم من الإتقان وسرعة التطور ، وهذا يحتاج لتخطيط وتنظيم. إذن التكنولوجيا يمكن أن تمثل خطا موازيا للعلم متفاعلا ومتكاملا معه ، إلا أن العلم قد خضع للتأصيل طويلا أما التكنولوجيا فهى أقل تأصيلا ، أو قل: تُرك تأصيلها للعلم.

ونتيجة للطبيعة التسجيلية للعلم فى هذا العصر ، فقد سبق العلم التكنولوجيا وتولى أمرها وأحسب أن ذلك سيستمر إلى الأبد. ولا تقتصر سيطرة العلم على التكنولوجيا وحدها بل تعدت سيطرته إلى مختلف نواحى النشاط المعيشى وحتى العقول. وأصبح من المتعذر التعامل مع التكنولوجيا المعقدة بدون استيعاب أساسيات علمية معينة. والتكنولوجيا لكى تنجح فيشترط أن تكون مبتكرة محليا أو تستوطن فى الموقع الذى تنقل إليه ؛ بحسن استيعابها وأقلمتها وتنميتها ، أما الاعتماد المستمر على استيرادها فيعنى التبعية وأن التكنولوجيا ستظل غريبة ومكلفة وقابلة للتعثر والرحيل لأتفه الأسباب وفى أقرب فرصة.

العلم والحقيقة

يبدو الأمر محيرا ؛ بسبب قِلة ومحدودية علمنا وما يختلط به من غشاوات. هل نقول إن العلم - الصحيح - يبنى على الحقائق ، أم أن الحقائق هى التى تبنى على العلم الصحيح؟ وقد نسأل أيهما أحكم العلم أم الحقيقة؟ كلاهما لم ندركه كاملا ، ولكن نتوكل على العليم الخبير ونمضى بحذر ، فنقول إنه يمكن أن يوجد أنواع من العلم: العلم الفاسد ، العلم المغشوش ، وأيضا يوجد العلم النافع وآخرغير النافع وعلم صحيح وآخرغير صحيح ، هذا باعتبار العلم البشرى مجموعة (مخاليط) من المعلومات. وعلى المستوى البشرى لا يوجد علم مطلق الصحة.

أما الحقيقة ، فعلى المستوى الكونى لا توجد حقيقة فاسدة ، لكن توجد محاولات أو أخطاء تشوه وتزيف صورة الحقيقة ، وليست الحقيقة ذاتها. إذن قد نستنتج أن الحقيقة فى مجملها أرسخ من علمنا فى مجمله ، ونقول: إن الحقائق هى أساس علمنا الصحيح. ولا تدرك الحقيقة بدون العلم الصحيح ، والعلم الصحيح يضىء جوانب الحقائق ويستقر عليها ، ويبرهن عليه بها. أما العلم الفاسد فلا برهان يسنده ولا حق يعضده ولا يستقر على شىء ، وبقاؤه رهن بالجهود المبذولة للنفخ فيه وتزيينه ومساندته ، وذلك بذل خاسر.

حقيقة الشيء واحدة ، قد تكون عديدة الجوانب ، وهى فى الغالب كذلك ، ومعظم الحقائق الصغرى يحدث فيها تحولات ، ولكن فى وقت معين الحقيقة واحدة ؛ فكل الحقائق الصغرى مخلوقة وتمر بتغيرات ، أو قل : هى طرح (نتاج) الحقائق الكبرى. والذى يؤثر علينا هو حقيقة الحقيقة وليس صورتها لدينا ، وما ندركه بحواسنا ورؤيتنا هو صور الحقيقة ، أو تصورنا لها. فعلمنا غير الدقيق بحقيقة الجاذبية الأرضية أو شدة الرياح لا يعفينا من تأثير كل منهما علينا بالقوى والقوانين الحقيقية. والعلم دائما يدور حول الحقيقة ؛ فهى التى تغذيه وهو أبرز مقومات صنعها.

الحقائق المطلقة لا تدرك بدون العلم المطلق ، والعلم المطلق محال بالنسبة للمخلوق ، لكن يمكن أن يتم إخبار الإنسان بحقيقة مطلقة غير مفصلة ، عن طريق مبلغ صادق ، وهذا يختلف عن الإدراك الذاتى للحقيقة. وما ندركه من الحقائق أغلبه نسبى ، أو جزئى أو إدراك موقوت، وندرك منها بقدر ما ييسر الله لنا. وبشيء من التفكر نعلم أن ما ندركه من الحقيقة هو أبعاض منها أو فى الغالب بعض قشورها (مبانيها) وقليل من معانيها ، وهذا لا ينفى علمنا بحقائق كثيرة ، لكن الذى ينتفى هو الإحاطة الكاملة بها. ولنضرب أبسط الأمثلة (المادية) ، هب أن كرة حقيقية موجودة أمام أعيننا وفى أيدينا ، فكم وجها للكرة؟ الجواب العلمى الصحيح : ما لا نهاية من الأوجه ؛ لأن كل نقطة على سطح الكرة تمثل مركز أحد أوجهها. وهذه الأوجه اللانهائية ماذا

تمثل بالنسبة لحقيقة الكرة؟ الجواب : تمثل السطح الخارجي لقشرتها. هذا بالنسبة للمادة الماثلة بين يدينا فماذا عن المعانى! إنها أوسع وأعجب.

مثال آخر ، الموت حقيقة كبرى الكل مُبلغ بخبرها ، ولكن لا يوجد بشر - حى - يدرك حقيقة الموت ، إنما يوجد لدى كل منا بعض المعلومات المجملة عن الموت ، قدر هذه المعلومات يتناسب مع مدى اهتمام الإنسان بقضية الموت. واستعداد الإنسان للموت يتوقف على كيف وكم معلوماته عنه ، فالغافل لا يكاد يعرف شيئا صحيحا عن الموت ، والمنتحر جاهل بما وراء الموت.

وأيضا خلق الله للكون حقيقة - أخرى - بلغنا خبرها لكن لم يشهدها مخلوق ولا يمكن أن يدركها ، فقط تم إبلاغنا بها عن طريق أصدق الخلق ، والجدال حولها أو محاولة نفيها يعتبر كمضغ الهواء أو طحن السراب وتلك حرف بل هوايات السفهاء.

فأغلب ما نعلمه هو أخبار بعض الحقائق ونسب (كسور) من الحقائق ، أو حقائق نسبية ، تكون علما نسبيا (يمثل إدراكا محدودا) يضاف إليه - مع الوقت - كسور أخرى من الحقائق وركام من الأباطيل ، وأحوال الماضى التى تغيرت الآن. وحينما تتجاور كسور الحقائق يشد بعضها بعضا ، ويقوى العلم ، وتنمو المدارك ويتبين عظمة تنظيمها. وبغرض التبسيط سنعتبر كسور (جزئيات) الحقائق الكبرى حقائق صغرى ، هى لبنات العلم - الصحيح - أو مفرداته.

وبذلك يمكن أن نعتبر العلم البشرى الصحيح استيعابا صحيحا لمجموعة حقائق جزئية. هذا الاستيعاب يحتاج إلى لغة ، واللغة قد تكون ممتازة أو جيدة أو غير مناسبة أو رديئة أو غير مفهومة - بالنسبة للقارىء - وذلك يحكم درجة استيعاب الحقائق. وفى نفس الوقت يصعب أن نعتبر اللغة حقيقة ، بل هى وسيط رمزى بين الحقيقة والعقل (كمستودع حى للعلم). ويمكن الاستغناء عن بعض أنواع اللغات أو استبدالها بأخرى ، ولذلك لا يصح أن نعتبر أن أبجدية لغة ما حقائق ؛ وذلك لأن بدائلها عديدة ، أما الحقائق فلا بدائل لها. اللغات تندثر وتستجد وتتطور ، أما الحقائق فأرسخ من الجبال. بل ونمضى لنقول بأن الجبل ليس حقيقة دائمة ، بل وجود مؤقت ؛ لأنه يمكن تغيير شكله ، بل إن نسفه وزواله واردان.

إذن الحقائق متفاوتة الرسوخ ، أرسخها على الإطلاق والدوام ما يتعلق بالله - جل شأنه - أما ما عدا ذلك فحقائق طارئة ومدى رسوخها خاضع لمشيئته سبحانه وتعالى. وبالتفكر يمكن أن نتصور ترتيبا عقليا بينيا للأشياء ، فنقول إن حقيقة الموت أقدم وأرسخ من حقيقة الحياة. فالمخلوق يحيا فى الدنيا عشرات السنين لكنه يموت إلى يوم البعث ، أى آلاف السنين. وجذع الشجرة أبقى من أوراقها ، والبحر أرسخ من النهر ، وهكذا فالحقائق متفاوتة القوة ويمكن ترتيبها بالعقل مع احتمال الخطأ ؛ بسبب عدم الإلمام الكافى (أو الإحاطة) بحقيقتها. وخطأ الترتيب يضر بسلامة العلم ، هذا فضلا عن تغير الحقائق الصغرى ، فمثلا

عرض النهر - فى منطقة ما - رغم أنه حقيقة يمكن قياسها ، إلا أنه قابل للتغير ، بل والتلاشى ، فهو إذن حقيقة صغرى مؤقتة.

الله هو الحق الأعظم والحقيقة المطلقة ، وما سواه جزئيات واهية طارئة ، مصائرها رهن مشيئته ومصدرها منه ونهايتها إليه - جل شأنه. يكفى أن نستحضر ما يؤكده علم الطبيعة الحديث ، أن المادة التى تملأ عيوننا وقلوب أغلبنا ليست إلا وهما ؛ ليست مادة!! نعم المادة بجسم وهمى أجوف ، أو كما يقولون طاقة متجسدة مؤقتا ، وإنك أيها الإنسان لوهم كبير ما أسرع زواله ؛ فبما أن المادة طاقة (حركة) فهذا الجسد مجرد شبح تُلازمه الروح إلى حين ، **والروح من أمر ربى.**

التجمع العلمى

نحن فى عصر العلم وفى عصر التكتلات ، ولا مجال للجهل ولا للتشرذم ؛ فالتشرذم يعنى التسطح والضياع ، والتكتل يعنى بروز الوجود والارتفاع ، تلك خاصية طبيعية نلمسها فى معظم الأشياء ، ومن يعمل ضد الخصائص والقوانين الكونية لا بد وأن يدفع الثمن بمشقة وعسر إن استطاع ، ومن يعمل مع هذه الخصائص والنواميس الكونية يتوافق مع منطق الكون ويجنى الثمار ببساطة ويسر وسعادة. وكل من العلم والمعرفة له طبيعة تراكمية تراكبية تكاملية ، ويخضع لاقتصاديات الحجم وعوائده ، وكأمثلة طبيعية : فإنتاجية سائق "الباص"

أعلى من إنتاجية سائق "التاكسى" رغم أنف فلاسفة التشرذم وأصحاب الافاق الضيقة ، وإنتاجية سائق القطار أعلى كثيرا من إنتاجية سائق "الباص". وصاحب الهرم الموضح فى شكل (2-A) حتما سيتفوق على مجموع شراذم شكل (2-B) ولتتفلسف الأفواه المغرضة ما شاءت ، إنهم يسبحون ضد التيار ، لحاجة فى نفوسهم ، كتقسيم التركة ، أو جهلا بأبسط القوانين الطبيعية ، أو بسبب قصر فى النظر.

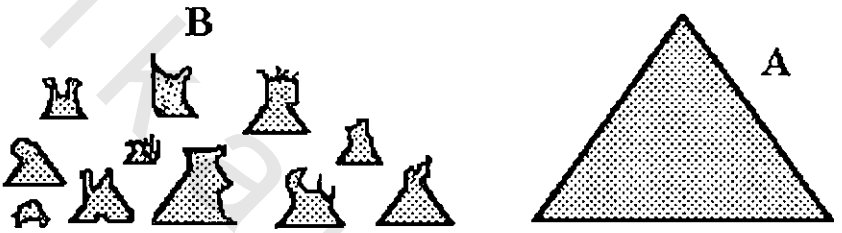

شكل (2). تمثيل التجمع والتشرذم.

تجميع التخصصات العلمية يوفر االطاقات والإمكانات لبناء الصروح العلمية الشامخة والراسخة ، ويكشف أوجه النقص الذى يلزم إكماله ، وييسر لغة التفاهم بين أهل التخصص الواحد ويوفر التقارب بينهم وسرعة التقرير والحسم ، ويمنع التكرار غير المطلوب. فما معنى وجود 15 قسما هزيلا مكررا – لأحد التخصصات العلمية – مبعثرة فى مختلف أنحاء البلد الواحد ، المئات من شركاء المهنة لا يعرفون بعضهم البعض كل منهم يهيم فى واديه ويدور حول نفسه أو يغنى على ليلاه. لمصلحة من تتكرر 15 ماكينة من نفس الصنف

لتغطية الشتات ، وتنقص 15 ماكينة من أنواع مختلفة ؛ بسبب ضعف الإمكانات ونقص التمويل!! لمصلحة من يبحث زيد فى نقطة علمية فى بورسعيد وبعض مراجعها العلمية قد تكون موجودة فى حلوان أو فى أسيوط وهو لا يعرف ، ولو حاول أن يعرف ، فكم سيتكلف وكم سيتبقى من جهده للبحث؟ إن النقص يصبح ظاهرة مسلما بها فى مناخ التشرذم ولا أمل فى تغطية النقص والحال كذلك ؛ لأن النقص أصبح هو الأساس.

حين تواجه أحد رجال الصناعة مشكلة إنتاجية تحتاج لبحث علمى ، ترى إلى أى جامعة يتوجه؟ إنه لن يفكر فى ذلك لأنه متخرج من نفس جامعات الشتات ، ويعرف أنها بلا تجهيزات بحثية محترمة. لو تجمعوا - بنفس الإمكانات - لكان لهم صرح أو جامعة متخصصة يقصدها بوضوح كل من لديه مشكلة إنتاجية فى مجال هذا التخصص ، وهو واثق من أنه سيجد ضالته. وهذا التشرذم فى تقسيم التركات ولد أقساما هزيلة فى كليات الهندسة والزراعة والطب والفنون والعلوم الإنسانية وغيرها ، إنها مشاكل هزال الشتات ، ثم نشكو قلة الإمكانات وضعف التمويل! وهل ضيق ذات اليد يؤدى إلى تكرار الصنف 15 مرة فى البيت الواحد مع غياب أصناف كثيرة وضرورية لنفس البيت! قد يلزم وجود أكثر من مدرسة وعدة حضانات للأطفال فى القرية الواحدة ، ولكن لا يعقل تشتيت عقول أهل التخصص البحثى الواحد وبعثرة الإمكانات النادرة والمحدودة ، إلا إذا كان دور الجامعات هو تكرار لدور

المدارس ، لكن بشكل أكثر انتفاخا من أجل إرضاء حاجات فى نفوس الورثة وأصحاب التركة.

لتغطية الواجبات التدريسية وتمثيل الدور البحثى لدواعى الوجاهة فالغالبية تضطر للتسطح ؛ لأن ظروف التشرذم لا تمكن من التعمق ، فأين الفكر الذى سيقود المجتمع!! من خطط لنا هذا التشرذم وخدر عقولنا لتألفة دون وعى!! بهذا الشتات كيف يمكن أن نخطط وننظم لتلبية احتياجات المجتمع من تخصص علمى معطاء فى مجال معين ، أو نحد من تخريج تخصص آخر غير مطلوب ، ولمصلحة من نعمل ضد الحقائق والنواميس الكونية!

ما معنى انتداب أستاذ من القاهرة ليسافر أسبوعيا للتدريس فى المنيا أو فى أسيوط؟ أى عطاء ينتظر وأى عمق سيتحقق! العجيب أن هذا الأمر أصبح معتادا لدرجة أن الأساتذه يستغربون فكر من ينتقد ذلك ، لقد أصبح الصواب هو المستغرب والشاذ هو المعتاد! ويقول بعضهم : إن الانتداب موجود فى دول أخرى فما العجب!! وكأن هذا الاستشهاد بالاستثناء دليل علمى مقنع للعقل السليم ، ويكفى لمناطحة منطق الكون!

إنها قضايا عقلية.